

رحلة أنثروبولوجيا الجريمة من المقاربة البيولوجية إلى المقاربة الثقافية

The journey of the anthropology of crime from the biological approach to the cultural approach

د/ بوطرفة نوال¹، جامعة عنابة – باجي مختار

nawel boutarfa, University of Annaba

nawel_boutarfa@yahoo.com

تلويخ الاستلام: 2018/07/03 تاريخ القبول: 2018/11/18 تاريخ النشر: 2018/12/30

ملخص:

في عالم متغير ومتحول، يشهر تحدياته اليومية في وجه المجتمعات بظواهره الجديدة التي تفرزها سيرورة تحولاته. تعد الجريمة أبرز تجليات هذا الواقع، فقد تنامت بتنامي نسق العولمة، ارتفعت ضحاياها، تطورت أشكالها وأدواتها، وتضاعفت مخاطرها، وأصبح الأمن والخوف من الجريمة سمة بارزة تميز المجتمعات الحديثة، التي تحولت إلى مجتمعات للمخاطر. وفي ظل هذه الظروف تبدو المعرفة العلمية، وبالتحديد أنثروبولوجيا الجريمة المرشح الأفضل للتعامل مع هذا الواقع، من أجل فهمه، سبر أغواره. ونحاول في هذا العمل إبراز الزوايا التي تقارب من خلالها أنثروبولوجيا الجريمة مواضيعها، والمراحل التي مرت بها هذه المقاربات. **الكلمات المفتاحية:** الجريمة، المقاربة البيولوجية، المقاربة الثقافية، المجتمعات الحديثة.

Résumé :

L'anthropologie du crime, de l'approche biologique à l'approche culturelle

¹ - المؤلف المرسل:

Dans un monde globalisé, en pleine mutation, qui ne cesse de produire de nouveaux phénomènes et d'imposer ses changements.

La criminalité est l'une des configurations de ce processus, son taux a augmenté, son mode opératoire a changé, il a profité de nouvelles conditions (nouvelles technologies, ouverture des frontières...etc) pour exécuter ses plans, pour faire prospérer ses affaires.

Ainsi le nombre des victimes ne cesse de s'accroître, l'insécurité et la peur s'installent dans les sociétés, qui sont devenues des sociétés des risques. Dans une situation pareille, il est nécessaire de faire appel à la connaissance scientifique, notamment l'anthropologie du crime pour essayer de comprendre ce phénomène en plein essor, et y trouver les solutions propices.

C'est dans ce cadre que s'inscrit cet article qui porte sur l'évolution de ce champ scientifique, et de ses différents perspectives et approches dans l'étude du crime.

Abstract:

Anthropology of crime, from biological approach to cultural approach

In a globalized and changing world, which is constantly producing new phenomena, and imposing its changes.

Crime is one of the configurations of this process, its rate has increased, it has taken advantage of the new conditions (new technologies, open borders) to execute its plans, to make its business prosper.

As a result, the number of victims is constantly increasing, insecurity and fear are becoming established in societies, which have become risk societies. In such situation, it's

necessary to use scientific knowledge, especially the anthropology of crime, to try to understand this growing phenomenon, and find the solution.

In this context, this article, which deals with the development of anthropology of crime, and its various approaches to the study of crime.

Key words: Crime, persecution, cultural persecution, modern societies.

مقدمة

يعد السلم، الأمن والاستقرار أبرز تجليات العقل والعقلانية، هاتان المقولتان المركزيتان اللتان تأسست عليهما المجتمعات الحديثة، هذه الأخيرة التي تختصر مسار تطورها وراقيها الحضاري في استهدافها للنظام كغاية، وابتعادها عن الفوضى والعنف اللذان يرتبطان بالمجتمعات المتخلفة، المتوحشة، غير المتحضرة. غير أنه من المفارقة أن القرنين العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين - قرنا المطالبة بحقوق الإنسان، الحرية، الإنسانية، التنمية، قرنا الثورة التكنولوجية والرقمية - يعدان من أكثر مراحل الإنسانية عنفا ودموية، إذ شهدت معدلات الجريمة ارتفاعا غير مسبوق، اتسعت دائرتها وعبرت الحدود الجغرافية والسياسية، تضاعف عدد الضحايا، واستخدمت آخر ما توصل إليه العلم والتكنولوجيا، " وأصبح الشعور السائد هو العيش في زمن يتزايد فيه انعدام الأمن وأصبح التصور العام عن الانحراف والتهديد بالعنف أكثر تواترا، وظواهر أكثر وضوحا في الحياة اليومية للمجتمعات الرأسمالية المتقدمة"¹ في ظل هذه الظروف أصبح الخوف من الجريمة، طرق مكافحتها والحد منها، مفاهيم مفتاحية ومرجعية لرسم السياسات العامة، وإضفاء الشرعية على برامج وتدخلات السلطة، وقاد ذلك إلى " هوس بالقواعد، إصرار على رسم الحدود بين السلوك السوي والسلوك غير السوي، عدم التسامح مع الانحراف والفوضى، ورد الفعل الصارم ضد اختراق القوانين أو المس بالحياة المدنية... بل وأصبح الوعي المتنامي بالمخاطر والخطر هوما يميز حالة مجتمعات ما بعد الحداثة"²

وتترجم هذه الحالة النفسية والذهنية في محاولات تجنيد كافة الوسائل والإمكانيات للحد من العنف والجريمة، وفي مقدمتها توظيف العقل والمعرفة العلمية.

1 - الأنثروبولوجيا والجريمة:

تعد الأنثروبولوجيا من بين العلوم الاجتماعية والإنسانية المؤهلة للتعامل مع ظواهر العنف والجريمة، لأن:

- العنصر الثقافي الذي يمثل موضوعا محوريا للأنثروبولوجيا، يشكل مكونا هاما وأساسيا في الفعل الجرمي الحديث، كالتنظيمات الإرهابية التي تنتشر بالثوب الديني، أو الجريمة المنظمة التي تستند بالأساس على التكنولوجيا الحديثة في تنفيذ خططها.

- الثقافة هي الموجه الأساسي للفعل الاجتماعي بشكل عام ومن بينه الفعل الجرمي، وهي التي تمنح المجتمع خصوصيته التي تميزه عن باقي المجتمعات، حيث تزود المجتمع بخزان المعاني والقيم والمعايير، والتي يتم نقلها للفرد عبر مؤسسات التنشئة الاجتماعية، التي تحدد ما هو مقبول أو غير مقبول، مرغوب أو غير مرغوب فيه، وبذلك يصبح السلوك كاشفا وترجمة للثقافة التي يحملها الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه.

كما أن الثقافة ترسم أيضا معالم العالم الاجتماعي وتمنحه هويته الخاصة، من خلال تشكيلها لأسلوب مشترك للتصرف، وهذا ما يجعلها عنصرا موحدًا للمجتمع، وتمنحه هويته الخاصة التي تميزه عن باقي المجتمعات. لذلك فإن " التساؤل حول الجريمة يقود إلى التفكير في المنظومات القيمية المختلفة التي تجمع عليها المجتمعات الإنسانية وتجمعهم بدورها حول ثقافة الجماعات المهيمنة والمهيمن عليها، حول فرض المعايير والقواعد الاجتماعية"³

2 - أنثروبولوجيا الجريمة والتداخل مع الفضاءات الأخرى:

الواقع أنه قبل أن تتأسس هذه العلاقة المعرفية الوطيدة بين الأنثروبولوجيا، الثقافة والجريمة، مرّ هذا الحقل المعرفي بمراحل متعددة، متخذًا في كل مرحلة موقفا من

الفعل الجرمي، ومنظورا مختلفا لمقارنته، وفي هذا الإطار تكتسي مهمة البحث عن تاريخ أنثروبولوجيا الجريمة صعوبة، لأن:

- أنثروبولوجيا الجريمة مثلها مثل التخصص الذي تتحدر منه، هي عبارة عن "تخصص هجين متكون من عدة فروع معرفية تجمع بين الأساليب الحالية لأنثروبولوجيا الفيزيائية، الطب النفسي، علم الاجتماع"⁴ إن هذا الأصل الاستمولوجي المتعدد والانتماء لتخصصات مختلفة، يجعل من الصعوبة بما كان إيجاد زاوية مشتركة لرؤية منسجمة للظاهرة الاجرامية.

- حقل أنثروبولوجيا الجريمة ظل "مقصودا من طرف باحثين هواة تدربوا لفترة طويلة على مناصب خبراء في هذا المجال"⁵، كالأطباء، الأطباء النفسانيون، رجال القانون... إلخ، وهذا أيضا لم يمنح أنثروبولوجيا الجريمة الطابع المحترف والانتماء للحقل المعرفي الذي تتفرع عنه.

- حقل أنثروبولوجيا الجريمة يعاني من غموض وتداخل الحدود بينه وبين الحقول المعرفية المجاورة له، كعلم اجتماع الجريمة، وعلم الاجرام، خصوصا في المراحل الأولى للتأسيس، ذلك أن هذه الفروع تتشارك البدايات والتراث النظري، إذ يدعي كل حقل معرفي انتماء الدراسات الأولى للجريمة لمجال تخصصه، ويقدم التبريرات الاستمولوجية لشرعنة هذه العلاقة.

ولهذه الأسباب فإن الباحث في تاريخ أنثروبولوجيا الجريمة، يجب أن يتحلى بحذر استمولوجي فائق وحضور ذهني دائم، ليعرف أين يضع موطأ قدمه، ويلتزم بالحدود الاستمولوجية لأنثروبولوجيا الجريمة، ويتقاضى اختراق مجالات التخصصات الأخرى التي تهتم بهذا الموضوع، بالإضافة إلى التنقيب في المساهمات النظرية الموجودة، وفرزها من أجل استخلاص الدراسات ذات الهوية الأنثروبولوجية الخالصة، وتحديد المراحل التي مرت بها، لإعادة رسم مسار تطور هذا الحقل المعرفي، واستبعاد الدراسات التي تعتمد منظورات و تتبنى مقاربات أو تساؤل أبعادا تنتمي إلى حقول معرفية أخرى، كالبعد القانوني التشريعي الذي ينتمي لعلم الاجرام، أو تأثير العوامل الاجتماعية والبعد

الاجتماعي في نشأة الفعل الجرمي الذي يندرج ضمن اهتمامات علم اجتماع الجريمة، أو البعد العقلي والنفسي الذي يقع ضمن نطاق علم النفس.

3 - مراحل تطور أنثروبولوجيا الجريمة:

إن إعادة بناء تاريخ انثروبولوجيا الجريمة، لا بد له من خيط استرشاد تستدل به هذه العملية، وتتبع مساره، وفي حالتنا هذه ستكون الأنثروبولوجيا العامة هي الإطار الذي ستقرأ، وتحدد مراحل التطور في ضوءه، لأن أنثروبولوجيا الجريمة نشأت، ترعرعت واكتسبتها هويتها المعرفية في أحضان التخصص العام الذي تنتمي إليه، وهو الأنثروبولوجيا، ومن البديهي أن تستمد مراحل تطورها وخصوصياتها منه.

فالأنثروبولوجيا كعلم اجتماعي يهتم بدراسة الانسان بجميع أبعاده البيولوجية، الاجتماعية والثقافية، وبذلك يقدم نفسه كعلم جامع يتعالى على الفصل الاستمولوجي بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، بهدف تقديم مقارنة شاملة للإنسان.

وقبل أن تصل إلى هذه المرحلة، مرّ موضوعها بتحوّلات، واختلفت في كل مرحلة امتداداتها وحدودها الاستمولوجية، وعلاقتها مع العلوم المجاورة لها، وقد كان لهذه الظروف تأثيرا مباشرا على الفروع المنتمية لها، ومن بينها أنثروبولوجيا الجريمة، وبذلك فإن قضية تطور هذه الأخيرة تشترك في فصول كثيرة مع التخصص الأصل.

وانطلاقا من كل ماسبق، يمكن تحديد المراحل التالية:

3 - 1 - بدايات الأنثروبولوجيا والمقاربة البيولوجية للجريمة:

في القرن 19 نجحت الأنثروبولوجيا كغيرها من العلوم الاجتماعية في التحرر من الفلسفة، والتأسس كعلم اجتماعي مستقل بذاته، يملك موضوعه الخاص به ألا وهو الانسان البدائي والمجتمعات البدائية غير الأوروبية التي لا تعرف الكتابة، والتي لا تاريخ لها .

ولحدثة نشأتها لم تتمكن من قطع الصلة نهائيا مع الفلسفة، أو من تحقيق هويتها الخالصة كعلم اجتماعي، لذلك لم تبعد في مقارباتها عن الفلسفة وعن

العلوم الطبيعية، التي شكلت نموذجاً يقتدى به، باعتبارها الأسبق في الانفصال عن الفلسفة، وتمكنت من تحقيق نتائج علمية وعملية باهرة، خصوصاً الطب والبيولوجيا، ولذلك تمحورت الدراسات الأنثروبولوجية حول الإنسان في بعده البيولوجي من خلال دراسة تاريخه الطبيعي، أصله، تطوره، خصائص الأعراق وتصنيفاتها... إلخ.

وقد انعكست خصوصيات هذه المرحلة على أنثروبولوجيا الجريمة، التي تناولت موضوع الجريمة من منظور بيولوجي، مقتدية بالتخصص الأصل الذي تنتمي إليه، فإذا كانت أنثروبولوجيا تلك المرحلة تختصر في "الأنثروبولوجيا الطبيعية وفي التاريخ الطبيعي للإنسان، فإن أنثروبولوجيا الجريمة هي التاريخ الطبيعي للإنسان المجرم"⁶ وذلك من خلال دراسة المجرم ومظاهره ومواصفاته الجسمية "مستلهمة أفكارها من الداروينية، ومنطلقة من فكرة أن المجرمين أقل تطوراً من الآخرين ولا يمكنهم السيطرة على رغبتهم في ارتكاب الجرائم"⁷

تتزامن هذه الفكرة مع نزعة إيديولوجية ميزت الأنثروبولوجيا في بداياتها، نزعة تعالي الإنسان الغربي وتمحوره حول ذاته، واحتقاره المجتمعات الأخرى المختلفة عنه، واعتبارها بدائية، غير متحضرة، ومتخلفة ، لذلك اقترن الفعل الجرمي بالإنسان المتوحش غير المتحضر، والسبب في ذلك ليس اقتصادياً أو اجتماعياً إنما أنثروبولوجياً بيولوجياً، إنها الطبيعة الجسدية العميقة لهذا النوع من الأفراد، وفي هذا الإطار انحصرت مهمة الباحثين في تحديد تلك المواصفات وتمييز أولئك الأفراد الذين يمثلون خطراً على الحضارة، وعلى مسار المجتمع الغربي نحو الحداثة.

وتعتبر كل من المدرستين الإيطالية والفرنسية رائدتين في هذه المقاربة ومن بين الأسماء التي ميزت هذه المدرسة يمكن ذكر:

أ - جوزيف فراسوا غال) "Joseph François Gall" (1758 - 1828) وعلم فراسة الدماغ:

بالرغم من أن لومبروزو هو الأكثر شهرة والأكثر تمثيلاً للمدرسة البيولوجية في مقاربة الجريمة، " لكن الأبحاث التي تناولت نشأة أو تركيبة المجرمين قد تمت

في فرنسا خمسون سنة قبل أن يصبح لومبروزو مشهورا... فقد كان فرانسوا جوزيف غال أول من نادى بفكرة وجود رابطة بين السلوكيات العدوانية وتركيبية الأفراد الذين يرتكبونها"⁸، لكن هاته الموصفات لا توجد في الجسم، وإنما تتركز فقط في الدماغ ولهذا يطلق على هذه المقاربة علم فراسة الدماغ، لأن "غال" يعتقد أن الدماغ هو مقر الفكر "وأن كل القدرات العقلية متمركزة فيه، وأن أي تطور في هذا العضو يسبب تطورا في نشاط الفرد، لذلك حاول التأكد ما إذا كانت نتوءات الدماغ وشكله الخارجي، ترتبط بقدراته ومشكلاته الداخلية، وتسمح بقراءة استعدادات وميول الأفراد"⁹، وبذلك انطلق "غال" في دراسة هذه العلاقة - بين شكل الدماغ وقدراته - "وتوصل إلى رسم خريطة وظائف الدماغ والتي حددها بسبعة وعشرين وظيفة تتراوح من الإدمان على الجنس إلى الذكاء مروراً بالجزء الخاص بالموسيقى أو السرقة... إلخ"¹⁰، واعتقد أنه من الممكن تحديد أماكن هذه الصفات والمواهب في الدماغ من خلال شكل الجمجمة "إذا كان تطور الدماغ منسجما كان الإنسان سويا، أما إذا كان متضخما أو أقل تطورا فإن ذلك يعد مؤشرا على أن الفرد سيكون غير متزن"¹¹، لأنه يعتقد أن الجنون والذكاء أو الجريمة والاستقامة ليست رهينة إرادة الإنسان فقط وإنما تتعلق أيضا بالبيولوجيا وبالتحديد بالدماغ "وهكذا وبرغم سذاجة بعض الأفكار لكن علم فراسة الدماغ شكل أصل البراديغم الذي هيكل فيما بعد الدراسات البيولوجية حول الجريمة"¹².

ب - ببيدكت أوغست موريل "Benidect Auguste Morel (1809-1973) ونظرية الانحطاط:

تندرج مساهمة طبيب الأمراض العقلية الفرنسي "بنيدكت أوغست مويل" ضمن المقاربة البيولوجية للجريمة، لكنه لا يرجع تلك الموصفات الشاذة لطبيعة الإنسان الموجودة في المجرمين، إنما لسيروية انحطاط أصابت بعض الأجيال، وهي عملية تدريجية تتزايد من جيل إلى جيل، وتؤدي إلى انحطاط فيزيولوجي، ذهني، نفسي وأخلاقي يجعل الأفراد مؤهلين للفعل الجرمي، ويمكن اختصار مبادئها في: " - يوجد في النوع الإنساني نموذج بدائي

- هذا النموذج البدائي يتدهور تدريجيا على الصعيد الفيزيائي والذهني حسب التأثيرات الخارجية مثل المناخ أو الأرض، الكحول، التدخين، الأفيون... إلخ
- تستمر درجة الانحطاط في التزايد طالما بقيت هذه الشروط سيئة إلى أن يصبح الفرد عقيما¹³

وبرأي "مويل" أنه للوقاية من حالات الانحطاط، لا بد من القضاء على مصادره، أما أولئك الأفراد المصابين بالانحطاط يقترح "إعادة إحيائهم ومعالجتهم علاجاً أخلاقياً مثل تطبيق الواجبات المفروضة من طرف القانون الأخلاقي، أما الحالات شديدة الانحطاط فتحتاج إلى تكفل أطباء ذوو كفاءة"¹⁴.

ج - سيزار لومبروزو (Cesare Lombroso) (1835 - 1905):

يلعب التكوين العلمي والظروف المحيطة دوراً في التأثير على نظرة العلماء للقضايا التي يدرسونها، فقد كان "لومبروزو" طبيباً للأمراض العقلية وطبيب تشريح، كما سمح له عمله في الجيش ببلورة نظريته " إذ لفت نظر لومبروزو انتشار الرسوم القبيحة، والوشم على أجساد الجنود الأشرار، ووجود الشذوذ البدني لبعض المجرمين الذين اقترفوا جرائم متسمة بالعنف والقسوة"¹⁵، ولأنه كان متأثراً بالمقاربة البيولوجية للجريمة التي اشتهرت بها المدرسة الفرنسية، فقد أرجع سبب تلك الأفعال إلى الشذوذ الجسمي، وبالنسبة له فإن هذا الانتهاك الأخلاقي والقانوني ماهو إلا نتيجة لخلل بيولوجي " فوجود عاهة عضوية خارجية كانهدام السمع، البصر، النطق، أو فقدان ذراع أو ساق قد تترك أثرها على نزعات وسلوكيات الفرد الإجرامية، كما أن انعدام التناسب بين أطراف الجسم لبعضها البعض، يكشف عن خلل في الناحية النفسية والخلقية، فصغر الدماغ أو كبره، جحوظ العينين، شذوذ الأنف، بروز الجبهة، شكل الأذنين أو الأسنان قد يكون دلالة على ميل إجرامي معين"¹⁶، وبذلك أسس "لومبروزو" لنظرية المجرم بالميلاد، والتي يرجع فيها النوازع الإجرامية للمجرم إلى طبيعة كامنة فيه منذ الولادة، تتمظهر من خلال الخلل البيولوجي والفيزيولوجي.

وبما أن "لومبروزو" قد عاصر نزعة التعالي على الإنسان البدائي واحتقاره، التي ميزت النظرية الأنثروبولوجية، في تلك الفترة، فقد أعتقد أن هذه السلوكيات

الإجرامية لا تليق بالإنسان المتحضر، وقد استند إلى الفرضية المألوفة لدى الأنثروبولوجيين التطوريين الأوائل أن الجريمة لدى المجتمعات المتحضرة هي ارتداد للعادات المتوحشة، وقد حاول إثبات هذا التفسير من خلال منهجه التجريبي" فقد قام بتشريح 383 جمجمة لمجرمين متوفين، كما قام بفحص أكبر عدد ممكن من المجرمين الأحياء، يصل عددهم إلى حوالي 5907 شخصا، وكان من ثمرة هذه الجهود ترسخ قناعته بتحقيق علامات الرجعة أو علامات الارتداد لدى بعض المجرمين¹⁷، ذلك لأنه ميز وجود " سلسلة من الصفات الشاذة، خاصة الحفرة القوية المتوسطة الضخمة، وتضخم الأوردة المشابهة لتلك الموجودة لدى الفقاريات الدنيا"¹⁸، وبتسجيله هذه النتائج استنتج " لومبرزو" أنه اكتشف سر الطبيعة الإجرامية في الإنسان، إنها تتمثل في عودة صفات الإنسان البدائي إلى الظهور في الإنسان الحديث.

وقد قوبلت نظرية لومبرزو بانتقادات كثيرة خصوصا في النظرة للإنسان البدائي واعتباره شريرا ومجرما بالفطرة، لأن العديد من الأبحاث الأنثروبولوجية كذبت هذه الرؤية، بل أثبتت وجود قبائل بدائية بريئة، مسالمة وغير عنيفة.

د - أرنست هوتون (Ernest Hooton) (1887 - 1954):

برغم الانتقادات التي تلقتها مساهمة " لومبرزو" والمقاربة البيولوجية للجريمة، إلا أنها امتدت حتى بدايات القرن العشرين، فقد قام " أرنست هوتون" أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة هارفارد، بدراسة سنة 1930، تمثلت في " دراسة مجموعة من المسجونين ونزلاء الإصلاحات وقارنهم بمجموعة ضابطة من الأفراد الذين لم يسبق لهم ارتكاب أي جريمة، واستنتج من تجربته " أن المجرمين يختلفون عن غيرهم اختلافا واضحا في مقاسات أجزائهم الجسمية، تبدو لديهم مظاهر الشذوذ البدني التي تشبه إلى درجة كبيرة علامات الرجعة أو الارتداد التي نادى بها لومبرزو"¹⁹. وتمكن " هوتون" من استخراج صفات خارجية أيضا تتمثل في " لون العينين وشكل الأنف والأذن والشفة والجبهة، إضافة إلى اتصاف المجرمين بانحطاط جسماني حدده بمئة وسبع صفة ترجع أساسا إلى العوامل الوراثية"²⁰

وتختلف هذه الصفات الجسمية حسب نوع الجريمة المرتكبة، إذ تختلف سمات المجرم القاتل عن سمات السارق، أو عن صفات مجرم ارتكب أعمال أخرى" إذ أن طوال القامة، ذوو الأجسام الضخمة يميلون إلى اقتراف جرائم النهب وجرائم القتل، وأن ذوي الأجسام الضعيفة وقصار القامة يميلون إلى اقتراف جرائم الشرف"²¹.

3 - 2 - ترسيم الحدود الابستمولوجية بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وتبلور المقاربة الثقافية للجريمة:

إن التحولات التي حملها القرن العشرون، والتطور الذي شهدته وسائل النقل والاتصال وتكنولوجيات الإعلام، قد فكت العزلة عن تلك المجتمعات المسماة بدائية، والتي كانت تتميز بنمط معيشتها البدائي في انعزال تام عن المجتمعات المتقدمة.

إن هذا الاختراق التكنولوجي والحضاري لتلك المجتمعات، أحدث تغييرا اجتماعيا عميقا، ورفع عنها صفة البدائية، وهدد باندثار هذا النوع من المجتمعات - التي شكلت الموضوع الأساسي للأنثروبولوجيا. وهنا طرح سؤال، هل سيؤدي زوال المجتمعات البدائية إلى زوال علم الأنثروبولوجيا؟ ولحماية نفسه من هذا المصير، امتد مجال دراسة هذا الحقل المعرفي للمجتمعات الحديثة، إلى جانب احتفاظه ببعض بقايا المجتمعات البدائية الآخذة في الانقراض.

لكن هذا التوسع في مجال الدراسة خلق تداخلا مع علم آخر، يدرس المجتمعات الصناعية الحديثة، ألا وهو علم الاجتماع، لذلك كان من الضروري إعادة تحديد وترسيم الحدود المعرفية فيما بينهما، وتأسس هذا التقسيم على ثنائية التقليد/الحداثة، " فللأنثروبولوجيا الريف ولعلم الاجتماع الوسط الحضري، وللأنثروبولوجيا الحياة الفلاحية الآخذة في الزوال ولعلم الاجتماع الزراعة الحديثة الناشئة، وللأنثروبولوجيا الخرافات والسرور ولعلم الاجتماع المؤسسات الدينية التوحيدية، وللأنثروبولوجيا الحرف التقليدية ولعلم الاجتماع المؤسسات الصناعية، وللأنثروبولوجيا الفنون الشعبية ولعلم الاجتماع الفن المعاصر، وللأنثروبولوجيا

التنظيمات العائلية التقليدية ولعلم الاجتماع الأسر المركبة، باختصار
للأنثروبولوجيا العشيرة والمجتمع التقليدي ولعلم الاجتماع المجتمع الحديث²²
ويمكن للأنثروبولوجيا أن تدرس أيضا المجتمعات الحديثة، لكن ليست كلها وإنما
تهتم بالوحدات الاجتماعية المنسجمة أو الجماعات الاجتماعية الصغيرة، أو
المجتمعات المغلقة ذات المواصفات الاجتماعية، الثقافية، العرقية المختلفة والتي
تميزها عن المجتمع الكلي الذي تتواجد فيه، كالأقليات العرقية أو الدينية،
الطوائف، العصابات...إلخ.

ومع ذلك تظل الحدود الابستمولوجية بين التخصصين باهتة، ومن أجل
توضيحها، وتعميقها، أصبحت الثقافة تمثل بعدا هاما وحاسما في المقاربات
والدراسات الأنثروبولوجية، فيما يشكل البعد الاجتماعي أساس المنظور
السوسيولوجي للظواهر. كما تبنت الأنثروبولوجيا المداخل الوصفية والمنهج
الإثنوغرافي والملاحظة بالمعايشة كأدوات منهجية تميزها عن علم الاجتماع، هذا
الأخير الذي اضطلع بمهمة النقد والتحليل.

إن امتداد الأنثروبولوجيا لفضاءات بحث جديدة، وفق منظورات وأبعاد ثقافية كان
له الأثر على أنثروبولوجيا الجريمة، التي تكيفت مع التحولات الحاصلة في
التخصص الأساسي، إلا أن توسع الآفاق البحثية، رافقته إشكالات ابستمولوجية
أخرى، فقد ضاقت المسافات وتداخلت الحدود بينه وبين علم اجتماع الجريمة،
إلى درجة يصعب فيها موقعة بعض الدراسات إلى أي الحقلين تنتمي كأعمال
مدرسة شيكاغو ودراساتها حول الجريمة في الوسط الحضري، واستعانتها
بالأدوات البحثية والتقنيات المنهجية الخاصة بالأنثروبولوجيا، كالملاحظة
بالمعايشة، أو استدعائها للمفاهيم والمقولات الأنثروبولوجية كتفسير الفعل الجرمي
من خلال الصراع الثقافي والثقافة الفرعية.

ومع ذلك هناك دراسات حاولت الالتزام بالحدود الابستمولوجية وبالمبادئ
المؤسسة لهذا العلم، سواء في مناهجها أو في مواضيع الدراسة، من خلال:
- تبني البعد الثقافي كمنظور أساسي في دراسة الجريمة، ومحاولة فهمها
وتفسيرها ضمن سياقها الثقافي، وإبراز دور المكون الثقافي في إنتاجها ومنحها

الوجود والتسمية، أي دراسات " تشمل المعنى، الرمزية، الهوية الاجتماعية، التحليل الثقافي الفرعي للفضاء والجغرافيا الثقافية، التحولات المرتبطة بالبيئية الجديدة، تحولات السلطة والمقاومة والرقابة الممارسة من طرف الدولة... إلخ²³. - الالتزام بالقواعد والأدوات المنهجية للأنثروبولوجيا كدراسة الجماعات الصغيرة، المجتمعات المغلقة، المجتمعات المتخلفة أو المجتمعات المحلية، بالاستناد إلى المناهج التي تشكل خصوصية أنثروبولوجية خالصة.

ويمكن إبراز مجالات البحث التي شكلت مواضع أنثروبولوجيا الجريمة لهذه المرحلة

3 - 2 - 1 - دراسة الجماعات الإجرامية المنظمة:

أ - دراسة العصابات

تعتبر العصابات موضوعا خصباً لأنثروبولوجيا الجريمة، سواء من حيث بنائها الذي يوقعها ضمن مجال دراسة الأنثروبولوجيا فهي تلك الجماعات الصغيرة، المغلقة، ذات البناء والنظام الاجتماعيين الخاصين، والتي تعمل وفق ميكانيزمات خاصة. ويرتبط إسمها ارتباطاً وثيقاً بالجريمة، إذ اعتبرها البعض " محرك تجارة المخدرات التي عرفت تطوراً كبيراً خلال الثمانينات، وهو أمر يستحق الدراسة باعتبارها فاعل غير رسمي خاص بالأحياء ذات الفقر المدقع²⁴ وبالجماعات الاجتماعية التي تعاني الاقصاء الاجتماعي، وتعيش على هامش المجتمع.

تتم دراسة العصابات من حيث نشأتها، تكوينها، الطريقة أو المعايير التي على أساسها يقبل الأعضاء فيها، أي " كيف يتم اختيارهم، كيف يتم إدماجهم في الجماعة، ماهي الموصفات المعتمدة في الاختيار، كيف يتم استبعاد الشباب الذين يرفضون الانصياع لقوانين الجماعة، ويتم وصمهم بالوشاية لجماعات أخرى منافسة، وكيف يتم اقصاء الأفراد غير المؤهلين للصراعات والمواجهات الاجتماعية... إلخ²⁵.

كما يهتم الأنثروبولوجيون بتفسيرات أخرى، ففي دراسة قام بها كل من " بلوك Block" و "نيدرهورف Niederhofer" حول العصابات الشبانية الأمريكية في

(1950)، توصلا فيها إلى أن تشكيل هذه الجماعات والانضمام إليها، هو شكل من أشكال طقوس العبور، التي يعبر من خلالها الفرد من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الرجولة. ويرتبط هذا الطقس الجديد بسرعة التحولات التي مرّ بها المجتمع الأمريكي، وتجاهله لعملية الانتقال من مرحلة عمرية إلى أخرى، ومن دور اجتماعي إلى آخر، وللطقوس المرتبطة بها، في حين أنها تعتبر حاجة ضرورية لدى الأفراد. وفي غياب طقوس عبور رسمية، لاحظ "بلوك" و "نيدرهورف" أن الذكور الشباب من الأمريكيين، يخترعون طقوسهم الخاصة، مستجيبين للدوافع والنزعات الكونية لظهور لأنفسهم وللمجتمع بأنهم قد بلغوا مرحلة الرجولة²⁶.

ب - المافيا:

تعد جماعات "المافيا" باعتبارها تنظيم إجرامي منظم، والتي يرتبط اسمها خصوصا بالجريمة المنظمة، من المواضيع التي تستقطب اهتمام الأنثروبولوجيين، بفضل خصوصياتها التنظيمية والثقافية التي تؤهلها لتكون من موضوعات أنثروبولوجيا الجريمة. وتعتمد المافيا على شرط أساسي في تكوينها ألا وهو " الرقابة على إقليم معين، إنها جماعة أو أسرة تعمل على السيطرة على إقليم معين، ومراقبة كل مايجري فيه، سواء على الصعيد الاقتصادي، السياسي، العمالي، وبطبيعة الحال الاجرامي"²⁷، و اهتم الأنثروبولوجيون أيضا بضرورة تكون عصابات المافيا، والظروف السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية، المساعدة على نشأتها ووصولها لمرحلة النضج والفعل، " فقد ركز " بلوك" في دراسته عن نشأة مافيا صقلية في (1974)، على معالجة شملت الجوانب الاقتصادية، السياسية، التاريخية والعلاقات الاجتماعية، وقد وصف " بلوك" كيف أثر قيام حكومة مركزية في 1861 على المناطق الاقطاعية النائية في صقلية، وكيف أدى إلى فراغ في السلطة تم استغلاله من قبل المقاتلين والفلاحين، وقد لعبت هذه الطبقة دور الجسر الذي ربط ملاك الأراضي المحليين والدولة من جهة، ومن جهة أخرى بين الملاك والفلاحين، وتمكنت من ممارسة الرقابة والضبط على هاته المناطق، وضمنوا لأنفسهم بناء سلطة محلية"²⁸.

كما يعد العنصر الثقافي مكونا هاما لجماعات المافيا، فلكل واحدة منها " تاريخ يشكل قاعدة تقليدية تسمح لها بتبرير نفسها ثقافيا، ولا توجد مافيا بدون هذه الخصوصية، إن هذه الذريعة التاريخية والثقافية تلعب دورا في ضمان التواصل مع السكان المحليين، حيث التقاليد مشتركة ويتم استلهاهما من الفلكلور المشترك"²⁹، وهذا ما يجعلها مادة دسمة، لأنثروبولوجيا الجريمة.

ج - ميكانيزمات تحديد مفهوم الجريمة:

تتبنى أنثروبولوجيا الجريمة مقارباتها للفعل الاجرامي انطلاقا من فكرة مفادها أن هذا الفعل يجد تفسيره في المكون الثقافي للمجتمع سواء بإيجاد المبررات المناسبة لشرعنته أو لإدانتها وتجريمه. ومن أجل فهم أفضل للجريمة لا بد من العودة إلى ديناميات السلطة المشرعة للنصوص القانونية، وكيفية تأثير ذلك على الجريمة، ولهذا " تحول الأنثروبولوجيون إلى الطبقات الاجتماعية والتفاوت الاجتماعي في السلطة للوصول إلى أسس تفسير الجريمة والانحراف في المجتمعات الصغيرة، التي تعد جزءا من المجتمع الكبير"³⁰.

وقد شكلت المجتمعات الاستعمارية باعتبارها مجال الأنثروبولوجيا بامتياز، اهتمام الأنثروبولوجيين في هذا الاطار، خصوصا في ظل تأثير هذا الحقل المعرفي بالنظرية الماركسية، وبإنجازات حركات التحرر الوطنية. "وقد انتقد كوماروف " Commaroff" مجال الأنثروبولوجيا للفشل التاريخي في معالجة الهيمنة السياسية للفترة الاستعمارية، بتركيزها فقط على تلاقي الثقافات بدلا من الاهتمام بالطبيعة الاقتصادية والسياسية للعلاقة بين المستعمرين والمستعمرين... ويرى كوماروف أن الأوروبيين استخدموا فكرة التقدم الكوني لتبرير تبعية الشعوب الأخرى لها، وقد تحقق ذلك بتجريم الممارسات الثقافية المحلية باعتبارها بدائية أو خطيرة"³¹

وقد استجابت أنثروبولوجيا الجريمة لذلك، وتمحورت الدراسات حول تحديد مفهوم الجريمة ودور الاستعمار في بلورته ونعت أفعال معينة بأنها أفعال إجرامية، وإبراز كيف ينبعث فعل التجريم من وضعية التفاوت في السلطة، ومن مصالح القوى المهيمنة، وقد توضحت هذه العملية في دراسة قام بها " ستولر Stoler في

سومطرة الأندونيسية، وركز على العلاقة بين الإدارة الاستعمارية الهولندية وأصحاب مزارع المطاط الهولنديين، وعمال المزارع المستعمرين، ووصف ستولر كيف استخدم أصحاب المزارع سلطتهم السياسية لحماية مصالحهم الاقتصادية، والحفاظ على سيطرتهم على العمال الآسيويين، وكيف قاموا بتأويل جرائم العمال المزارعين ضدهم بأنها أفعال خاصة، فردية ومعزولة، من أجل تجنب تدخل الحكومة المركزية، والحفاظ على سيطرتهم وامتيازاتهم، ثم كيف تم وسم أعمال المقاومة فيما بعد على أنها أعمال إجرامية من أجل دعوة الدولة للتدخل والقضاء على " المحرضين أو المشاغبين" ³² ، وبذلك تم إعادة تعريف هذه الأفعال بأنها جرائم وافعال تخريبية تهدد النظام الاجتماعي.

3 - 3 - العولمة وأنثروبولوجيا الجريمة:

لا شك أن موجة العولمة قد طالت جميع المجالات الاقتصادية، السياسية، الثقافية، وخلفت آثارها الظاهرة، إذ أدى تحويل العالم إلى سوق واحدة إلى تهاوي الاقتصاديات الوطنية الهشة للمجتمعات المتخلفة ، أمام رياح المنافسة العاتية، التي فرضتها الشركات العابرة للقارات ، بترسانتها التكنولوجية وبأساليبها التسييرية الحديثة وبرساميلها الضخمة. ولم تفلح سياسات الإصلاح الاقتصادي التي انتهجتها الدول استجابة لضغوطات المؤسسات المالية الدولية، وإنما زادت من سوء الوضع، إذ رافقت هذه البرامج الإصلاحية وإعادة هيكلة للمؤسسات، وكان ضحيتها أعدادا كبيرة من العمال الذين سرحوا من عملهم. خلقت هذه الإجراءات إذن أعدادا كبيرة من البطالين، وارتفع عدد الجوعى والفقراء والمعوزين، وزاد عدد الناقمين على النظام الاجتماعي والاقتصادي وتأسست بيئة مناسبة لنمو الفعل الاجرامي. هذا الأخير الذي تكيف مع العولمة واستفاد من آلياتها، ليوسع نشاطه " لقد صارت الشبكات الإرهابية إن صح القول بمثابة المنظمات غير الحكومية للعنف، فعلى غرار المنظمات غير الحكومية في المجتمع المدني، تعمل هذه الشبكات بطريقة لا مركزية، لا ارتباط لها ببقعة جغرافية، أي أنها شبكات فاعلة على مستوى محلي وعلى مستوى عابر للأوطان" ³³.

وقد استجابت أنثروبولوجيا الجريمة لهذه التحولات التي طرأت على الجريمة سواء في شكلها، طبيعتها، فاعليها، في أدواتها، امتداداتها... إلخ وذلك من خلال التركيز على "علاقة الجريمة بالمجتمع المحلي، أي كيف تتمكن مجتمعات الدول المتخلفة والجماعات المهمشة في المجتمعات مابعد الصناعية من إيجاد طريقة للعيش في ظل اقتصاد معولم، بالإضافة إلى التحقيق في جرائم الشركات الكبرى والأعمال الاجرامية في الدول القومية"³⁴

إن هذه التحولات لم تشكل قطيعة في موضوع أنثروبولوجيا الجريمة، لأن الأنثروبولوجيين هنا حاولوا التكيف مع فكرة الكوني والمحلي التي فرضتها العولمة، مع الاستمرار في الاستفادة من المقولات والأطر النظرية السابقة والمنظورات التي عالجتها من خلالها دراساتها، كفكرة التفاوت في السلطة وربطها بالعلاقات الاجتماعية، والمعاني الرمزية والتمثلات الاجتماعية للجريمة، وتفسير الفعل الاجرامي في ضوء هذه العلاقة. واستخلص الأنثروبولوجيون أن الواقع الجديد الذي فرضته العولمة أضفى الشرعية على بعض الممارسات التي تنعت بأنها إجرامية، لكن حاجة البقاء في المجتمعات النامية تتركها عكس ذلك "وتجعل من الشرعية مفهوما سلبيا، إذ لا يدرك السكان المحليون أنفسهم كمجرمين أو منتهكي قانون، بل يعتبرون الشبكات الخارجية عن القانون معادلة للدولة أو أكثر منها أهمية"³⁵، لأنها تمنحهم فرصا للعيش في الوقت الذي عجزت فيه الدولة عن ذلك.

إن العولمة لم تترك آثارها على موضوع أنثروبولوجيا الجريمة فقط وإنما امتدت إلى التقنيات والأدوات المنهجية التي غدت صعبة التطبيق، كالملاحظة بالمشاركة التي لم تعد ممكنة في ظل تزايد أعداد السكان وارتفاع الكثافة السكانية للمدن.

وتواصل أنثروبولوجيا الجريمة مسارها نحو فهم الجريمة بمختلف أشكالها، مستجيبة في كل مرة لتحولاتها، كيفية مواضيعها وتقنياتها المنهجية مع هذه التحولات، ومحافظة على الخيط الذي يربطها بأعمال الرواد الأوائل لضمان استمراريتها وتحقيق التراكم والثراء لرصيد المعرفي.

الهوامش:

- ¹ - Anna Barker, Peur du crime et insécurité, www.cairn.info/revue-deviance-et-société-2011-1-page-59.htm
- ² - المرجع نفسه
- ³ - Bassette Jean Michel, crime et culture, www.persee.fr/doc/dresso/0769-2000-h-46-1-1775-V1-0693
- ⁴ - PHILLIS JEROSLOW, Anthropological theories of crime and delinquency, www.tandfonline.com »doi»pdf
- ⁵ - المرجع نفسه
- ⁶ - المرجع نفسه
- ⁷ - المرجع نفسه
- ⁸ - Marc Renneville, L'anthropologie du criminel en France, halshs.archives-ouvertes »docu/pdf
- ⁹ - المرجع نفسه
- ¹⁰ - Marc Renneville, Histoire des sciences et justice pénale, m.renneville.free.fr/?P=33
- ¹¹ - المرجع نفسه
- ¹² - Marc Renneville, L'anthropologie du criminel en France, opcit
- ¹³ - المرجع نفسه
- ¹⁴ - المرجع نفسه
- ¹⁵ - محمد شلال حبيب، أصول علم الاجرام، المكتبة القانونية، بغداد، ص 71
- ¹⁶ - أحمد عبد اللاه المراغي، الظهرة الاجرامية، دراسة تأصيلية مقارنة لأسباب الجريمة، ط1، - مركز الدراسات العربية، الجيزة، 2018، ص 42
- ¹⁷ - محمد شلال حبيب، مرجع سابق، ص 73
- ¹⁸ - Aurore, La criminologie héritière paradoxale de l'école d'anthropologie criminelle / www.carain.info/revue-raisons-politique-2005-1-page-47-hm
- ¹⁹ - المرجع نفسه، ص 86
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص 87
- ²¹ - المرجع نفسه، ص 87
- ²² - Laurent Amiotte _ Suchet , Sociologie et anthropologie : deux traditions deux problématique, www.until.ch »shared8 telechargement
- ²³ - Keith Hayward, Cultural criminology, www.oxfordbibliographies.com/view/document
- ²⁴ - L , Wacquant, sur les gangs, www.persee.fr/doc/arss-0335-5332-1994-num-101_3088
- ²⁵ - المرجع نفسه
- ²⁶ - PHILLIS JEROSLOW, opcit
- ²⁷ - Thierry Cretin, Mafia une criminalité, une lutte qui l'est moins, www.carin.info/revue-etude-2007-9-pages-153-hm
- ²⁸ - Phyllis Jeroslow, opcit
- ²⁹ - Thierry Cretin, opcit
- ³⁰ - Phyllis Jeroslow, opcit
- ³¹ - المرجع نفسه
- ³² - بتصرف الباحثة، لمزيد من التفاصيل يمكن العودة ل - PHILLIS JEROSLOW, Anthropological theories of crime and delinquency, www.tandfonline.com »doi»pdf

- ³³ إريش بيك، السلطة والسلطة المضادة في عصر العولمة، ترجمة جورج كتورة، ط1، المكتبة الشرقية، بيروت، 2010، ص 54
- ³⁴ - Phyllis Jeroslow, opcit
- ³⁵ المرجع نفسه

قائمة المراجع:

1 - باللغة العربية:

- 1 أحمد عبد اللاه المراغي، الظهرة الاجرامية، دراسة تأصيلية مقارنة لأسباب الجريمة، ط1، مركز الدراسات العربية، الجيزة، 2018
- 2 - إريش بيك، السلطة والسلطة المضادة في عصر العولمة، ترجمة جورج كتورة، ط1، المكتبة الشرقية، بيروت، 2010
- 3 - محمد شلال حبيب، أصول علم الاجرام، المكتبة القانونية، بغداد

2 - باللغة الفرنسية:

- 4 - Aurore, La criminologie héritière paradoxale de l'école d'anthropologie criminelle / www.carain.info/revue-raisons-politique-2005-1-page-47-htm
- 5- Bassette Jean Michel, crime et culture, www.persee.fr/doc/dresso/0769-2000-h-46-1-1775-V1-0693
- 6- Laurent Amiotte _ Suchet , Sociologie et anthropologie : deux traditions deux problématique, www.until.ch »shared8 telechargement
- 7- L , Wacquant, sur les gangs, www.persee.fr/doc/arss-0335-5332-1994-num-101_3088
- 8- Marc Renneville, L'anthropologie du criminel en France, halshs.archives-ouvertes »docu/pdf
- 9- Marc Renneville, Histoire des sciences et justice pénale, m.renneville.free.fr/?P=33
- 10-Thierry Cretin, Mafia une criminalité, une lutte qui l'est moins, www.carin.info/revue-etude-2007-9-pages-153-htm

3 - باللغة الإنجليزية:

11-Keth Hayward, Cultural criminology,

www.oxfordbibliographies.com/view/document

12- PHILLIS JEROSLOW, Anthropological theories of crime and delinquency,

www.tandfonline.com »doi»

